عرب الســـــودان
والصحراء الشرقية
للأستاذ حسن أحمد حسين خليفة

كتب جماعة من المستشرقين وبعض الكتاب كتابة خاطئة عن أنساب بعض عرب السودان والصحراء الشرقية ، فجاء في محاضرة دخول العرب للسودان التي ألقيت في الجمعية الجغرافية الأسيوية منذ سنوات قليلة ما ملخصه : « إن معظم سكان الجزء الشمالي من السودان على ضفاف النيل يدعون أن نسبهم يتصل ببني العباس ، غير أن هذا محض ادعاء لم تثبت حقيقته بعد »

وزعم نعوم بك شقير صاحب كتاب « تاريخ السودان » : « إن انتساب عرب السودان للأصول التي ينتمون إليها ، لا ثبت له عندهم إلا ما حفظوه أو لفقوه من القصص الخرافية » .

ونسب المستشرق شوينفرث في كتابه « طرق مصر المهجورة » العبابدة والشكرية وغيرهم من قبائل الصحراء الشرقية للبجة ؛ وقال : « إن العبابدة تعربت كثيراً والشكرية تعربت »

ونسب البستاني صاحب دائرة المعارف ، والمستشرق بروس العبابدة للبجة ، وزاد نعوم بك شقير على ذلك بقوله : إن في تقاليد العبابدة أنهم قوم الزبير بن العوام ، ولعل قوم الزبير اختلطوا بهم فكانوا رؤوسهم . وإلى هنا نكتفي بهذا القدر من مزاعمهم ونرد عليها : بأن من الثابت في التاريخ أن فريقاً من بني العباس هاجروا من الديار المصرية إلى السودان في القرن الثامن الميلادي[١]

وإذا كان من صفات عرب شمال وشرق السودان والصحراء الشرقية تلفيق الأنساب ، فإن فيهم الجباب[٢] من نسل أبي لهب واليزيديين[٣] من نسل اليزيد ، فكان أحرى بهؤلاء أن يلفقوا لهم نسباً غير نسبهم

أما تلك القبائل التي نسبوها للبجة ، فهي قبائل عربية صميمة فالعبابدة في الأصل فرع من الكواهلة بني محمد الكاهل بن عبد الله المكنى بأبي بكر بن حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي . ويحدثنا الرحالة ابن بطوطة في كتابه « تحفة النظار وعجائب الأمصار » أنه رأى في نحو سنة ٧٥٧ هـ حياً من العرب بصحراء عيذاب (عتباي) على بعد يومين من رأس دوايو يعرفون بأولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم اهـ

وإن كاهلا الذي أشار إليه ابن بطوطة هو محمد الملقب بكاهل الذي يرجع إليه العبابدة وقبائل أخرى في نسبهم .

وجاء في كتاب « صبح الأعشى » للقلقشندي ، و« البيان والإعراب » للمقريزي من مؤرخي القرن التاسع الهجري ما ملخصه : « إن السيدة فاطمة بنت القاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب التي أمها السيدة أم كلثوم بنت السيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب هي أم يحيى وأبي بكر بني حمزة بن عبد الله بن

---

(١) كتاب قبائل العرب في مصر للأستاذ أحمد لطفي السيد .

(٢) المقصودهم قبيلة الجباب التي تقيم في جهات طوكر وعقيق وعدونة ورأس كسار وقارورة وأرتاريا .

(٣) المقصود بهم اليزيديون من بني اليزيد بن معاوية وهم جماعة متفرقة في بعض بلاد الرباطاب والجعليين .

بما يلي : « قال ابن قتيبة كل مدينة فسطاط » ، ويقول المقريزي بعد هذا : « وأخبرني أبو حاتم الأصمعي أنه قال حدثني رجل من بني تميم ، قال قرأت في كتاب رجل من قريش : هذا ما اشترى فلان بن فلان من عجلان مولى زياد اشترى منه خمسمائة جريب حيال الفسطاط يريد البصرة »[١] ويشبه هذه الرواية الأخيرة ويؤيدها قول ابن الفقيه : « وإنما سميت البصرة فسطاطا على التشبيه بفسطاط مصر »[٢] ، وقريب من هذا المعنى قول المقدسي : الفسطاط هو مصر في كل قول »[٣]

فالراجح عقلا بعد ذكر هذه الآراء جميعا أن كلمة « فسطاط » كلمة عربية خالصة معناها « المدينة » .

وخلاصة القول الذي نريد أن نذهب إليه أن العرب اختاروا هذا المكان اختياراً للأسباب السابق ذكرها وأنهم سموه « الفسطاط » أي « المدينة » أو « مجتمع أهل المدينة » يقصدون بذلك المكان الذي يجتمعون فيه حول جامعهم وحول منزل قائدهم .

جمال الدين الشيال

---

(١) المقريزي ، المرجع السابق ج ٢ ص ٧٥ — ٧٦ .

(٢) ابن الفقيه ، كتاب البلدان ص ٦٢ .

(٣) المقدسي ، المرجع السابق ص ١٩٧ .

الزبير بن العوام وأم ابراهيم بن طلحة الجود ، وإن السيدة زينب ولدت لعبيد الله بن جعفر أولاداً عرفوا بالزينية هم جعافرة الصعيد ، ومن هذه الأخوة كانت بنو طلحة وبنو الزبير والجعافرة يداً واحدة فى صعيد مصر » . وها أنت ترى اليوم فى القرن الرابع عشر الهجرى العبابدة بنى عبدالله المكنى بأبى بكر الزبيرى يقيم أكثرهم مع الجعافرة فى صعيد مصر بمديريتى أسوان وقنا ، ومختلطين معهم فى جميع سبل الحياة كما كانوا فى القرن التاسع الهجرى

أما ذلك الحى من أولاد كاهل الذى رآه ابن بطوطة فى رحلته بالصحراء الشرقية ، فيلوح لنا أنه رحل من صعيد مصر إلى تلك الصحراء عند تفرق العرب عقب حوادث سنة ٦٥١هـ التى خصلت بين حصن الدولة الجعفرى زعيم العرب بالقطر المصرى ، والملك المعز ايبك أول ملوك دولة المماليك البحرية كما تراه مفصلا فى كتاب السلوك للمقريزى

ورب قائل يقول : إن بعض مؤرخى القرن التاسع الهجرى بينوا فى مؤلفاتهم أسماء القبائل العربية وأماكنها بالديار المصرية فى عصرهم ولم يذكروا العبابدة . فجوابنا على ذلك هو أنهم لم يشتهروا باسمهم الحالى إذ ذاك[1] ؛ وقد اشتهروا به فى القرون الأخيرة كما اشتهر فى القطر المصرى والسودان وغيرهما من الأقطار عدة قبائل عربية بأسماء غير التى كانت تعرف بها أصولها فى القرن التاسع الهجرى وما قبله من القرون ، ومن المعلوم أنه كلما مر الزمن كثرت القبائل وتعددت أسماؤها

والشكرية عرب من خيار العرب ، وهم من آل شكر بن إدريس ، ويتصل نسبهم بالسيد عبدالله الجواد ، كما جاء فى نسخة خطية منسوبة للامام السمرقندى

ومن المعلوم أن كثيراً من العرب الذين ينتمون إلى تلك الأصول التى ينتمى إليها عرب السودان والصحراء الشرقية وبلاد النوبة أتوا إلى القطر المصرى عند الفتح الإسلامى وفيما بعده من العصور ، وإن الكثير منهم هاجر إلى الصحراء الشرقية وبلاد النوبة والسودان ، وخصوصاً فى زمن حكم المماليك الذين أذلوا العرب واضطهدوهم فى الديار المصرية

(١) اشتهروا أخيراً بهذا الاسم نسبة إلى جدهم عباد الصغير الذى يتصل نسبه بالزبير بن العوام فى الجد الرابع عشر .

وإن عرب السودان والصحراء الشرقية وبلاد النوبة يحفظون أنسابهم التى توارثوها عن أسلافهم . وقد جاء فى القول المأثور : « إن الناس مصدقون فى أنسابهم » . وهذا ثبت كاف لهم ، وعلاوة على ذلك فإنهم يتكلمون باللغة العربية إلا بعض قبائل فى الصحراء الشرقية ، وبلاد النوبة تعد على أصابع اليد ، اتخذت البجاوية أو النوبية لغة لها بحكم البيئة التى وجدت فيها

ومما نأسف له أن بعض كتاب مصر النابهين ممن ظهروا أخيراً وهم أحق بمعرفة السودان وما كتبه من أولئك المستشرقين وغيرهم كتبوا عن أنساب قبائل السودان والصحراء الشرقية وبلاد النوبة متأثرين بأقوال المستشرقين والسوريين الخاطئة ، لا كتابة من يعرف سكان تلك الجهات معرفة درس وتمحيص أعمق وأصح من الأساطير والمعلومات المتأثرة التى وضعها المستشرقون وكتاب سوريا ، وهى أقوال لا تستند إلى أى ثبت وإقامة تلك القبائل فى إقليم كان يسكنه فى القرون السحيقة أقوام ليسوا من العرب ، وإليك نبذاً من أقوال بعض كتاب مصر فى هذا الموضوع :

قال على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية : « يظن أن عرب العبابدة من البجة » . وقال الأستاذ البتنونى فى كتاب « الرحلة الحجازية ما ملخصه : « يقال إن البهجة من عرب البربر ومنهم العشابات ، وهم نخذ من العبابدة ، ويقيم أناس من العشابات فى القيطة بين قفط والقصير » . وقال الدكتور مأمون عبد السلام فى مقالة نشرتها له جريدة الأهرام فى سنة ١٩٣٩ م ما ملخصه : « إن جغرافيى العرب وصفوا الصحراء الشرقية وتكلموا عن سكانها من البجاة ، وهم البشاريون وأقرباؤهم العبابدة ، فذكرهم المسعودى وابن الأثير والمقريزى » اهـ

وأقوالهم هذه لا صحة لها ، فالظن ليس حجة ، وإن عبابدة عرب البربر هم نخذ من قبيلة هواره ، وقد ذكرهم القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » ، ويقيمون فى الوجه البحرى بالديار المصرية ، ولا تربطهم أى صلة نسب بالعبابدة بنى الزبير ممن يقيمون بصعيد مصر والصحراء الشرقية والسودان . وإن جغرافيى العرب الذين أشار إليهم الدكتور مأمون عبد السلام لم يذكروا البشاريين والعبابدة بين قبائل البجة التى وضعوها فى مؤلفاتهم التى اطلعنا عليها

ومما لا شك فيه أن هناك من تعرب من سكان السودان والصحراء الشرقية وبلاد النوبة القدماء ، واندمج اندماجاً كلياً فى العرب ، وأنه تجرى فى عرب هذه الجهات حفنة من دم غير عربى ، لأنه من عادة العرب أن يتزوجوا من أهل البلاد التى يحلون فيها ويتسرون ، وهذا لا يؤثر فى عروبتهم ، لأنه من عاداتهم أيضاً أن لا يزوجوا بناتهم لغير بنى جلدتهم ، مع أن سكان الأقطار الأخرى لا يتمسكون بهذه العادة ، وليس عرب السودان وحدهم الذين تجرى فى عروقهم حفنة من دم أجنبى ، فإن عرب الأقطار الأخرى هم بالمثل تجرى فى عروقهم دماء غير عربية ، وقل أن يوجد الآن على وجه الأرض أمة لم تختلط أصولها ، إذ لا جدال فى أن شعوباً غير عربية وجدت أو مرت بسوريا وفلسطين والعراق واليمن ووادى النيل فى القرون الخالية ، ولكن بمرور الزمن صهرت بقاياهم فى بوتقة العروبة ، وذابت فى الأمة العربية الحديثة ، وهذا لا يضيرهم فى عروبتهم ، فإن كل من كان لسانه عربياً فهو عربى وقد منح الإسلام الجنسية العربية لكل من تكلم بالعربية ، فقد روى الحافظ ابن عساكر قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها بلال الحبشى وصهيب الرومى وسلمان الفارسى فقال : الأوس والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل (يعنى أنهم نصروا النبى لأنهم قومه) ، فما بال هذا وهذا ؟ ... فسمع النبى صلى الله عليه وسلم بمقالته ، فقام مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ، ثم نودى الصلاة جامعة (فاجتمع الناس) . وقال محمد صلى الله عليه وسلم : « يا أيها الناس ، إن الرب واحد ، والدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية ، فهو عربى »

أما قبائل البجة التى ذكرها جغرافيو العرب كالمسعودى والمقريزى وغيرهم فهى :

البازه والباريه والخاسه والحدارب[1] والزنافج .

وإن منطقتهم كانت تمتد قديماً فى شرق أفريقيا من صحراء قوص بالقطر المصرى إلى بلاد الحبشة ، وعاصمتهم كانت مدينة هجر[2] ، وفى وقتنا الحاضر يقيمون فى القسم الجنوبى من تلك المنطقة

(١) الحدارب : هم مغرة القوم

(٢) هجر : جبل شاهق جداً فيه كهوف ومغاور لا تحصى ، وهو على مسيرة يومين من مدينة « كرن بارتريا »

ومما جمعناه من المعلومات الصحيحة فى مدة إقامتنا عدة سنوات بالسودان الشرقى وجبال بنى عامر ، إنه لما كثر العرب من بنى الزبير بن العوام بصحراء مصر الشرقية فى القرون المتأخرة وقويت شوكتهم وكثرت أنعامهم ، ضايقوا البجة فى أماكنهم بتلك الصحراء[1] بسبب شح الأمطار وقلة المراعى التى لا تكفى هناك لماشيتهم جميعاً ، فاضطرت البجة تحت ضغطهم للرحيل إلى الجنوب شيئاً فشيئاً ، وأقامت فى الجبال التى حول سواكن ، وبعد ذلك حاربها الهدندوة وقتل رئيسها أحمد باركوين : شكتيل ملك البجة ، وهو من قبيلة بلى العربية ، إذ كانت رئاسة البجة لبلى وتسميهم البجة بلويب ، ويقال لهم حدارب ، وإن وجود بلى فى الصحراء الشرقية يرجع إلى زمن بعيد ، فإن التاريخ يحدثنا أن قبيلة بلى كانت تقيم فى شمال منطقة البجة على عهد ظهور النصرانية بالقطر المصرى ، حيث يقيم الآن بعض عرب العبابدة ، وتدل القرائن التاريخية أن بلى هى أول قبيلة عربية خالطت البجة ، لأنك إذا سألت البجاوى : هل تعرف العربية أجابك (بلويه كاكا) أى لا أعرف لغة بلى ، وكان الحدارب يتولون التجارة بين السودان الشرقى والحجاز واليمن ، فزاحمتهم قبيلة الارتيقة[2] فى التجارة ورئاسة القوافل ، وانتزعتها منهم فى الخمسة قرون الأخيرة ، وأصبح اسم حدربى خاصاً بالارتيقة .

ولما قتل شكتيل ملك البجة المار ذكره دفن فى شمال مدينة سنكات بالجبل المسمى باسمه ، وعلى أثر ذلك رحلت البجة من الجبال التى حول سواكن ، وأقامت مع بقية البجة فى المنطقة من عند مدينة طوكر شرقاً ، حتى قرية الشيخ الإمام بديار الحبشة غرباً . وجبل هجر ونهر عنصبا (عين سبأ) بارتريا جنوباً . وشمالا بحور بركه الذى يروى أراضى طوكر

وإن قبائل البجة التى تقيم الآن فى السودان المصرى الإنجليزى هى :

اللبت والكربكناب والسنكاتكنات[3] ، وفريق من الخاسه

(١) قسم الشمالى من منطقة البجة .

(٢) وهم من الحضارم الذين هاجروا إلى السودان عن طريق البحر الأحمر .

(٣) وهم الذين كانوا يسمون قديماً بالزنافج .